مبيت قومي

يفرضان علي رأيهما وكأنني طفل صغير أتلمس الخطى بيدي، ويجبراني على قرارات لم أتوقع أن أتخذها في حياتي أبدا، يقولان أنهما أدرى بمصلحتي، ومصلحتي تركن في زاوية أحلامي البعيدة، ومهما حاولت إقناعهما في السير نحو أحلامي لن يسمعاني أبدا، ولن يتقبلا قولي، فأنا شاب متهور لا أقدر قيمة الدراسة في الخارج.

" لن أهرب من الجامعة يا أبي، حتما سأكمل دراستي، لكنني لا أريد أن أدرس بالخارج"

" ما بك يا أمي تصدين عني؟! أعلم جيدا أن أبي يريد مصلحتي لكني أريد أن أدرس هنا، فأحلامي كلها هنا، أرجوك أقنعي أبي بالعزوف عن رأيه"

كيف لها أن تقنعه في العزوف عن رأيه، وهي تناصفه الرأي، تناصفه هجرة أحلامي والابتعاد عنها كذا ميل، من حقي يا ناس أن أدرس الموسيقى في إحدى الجامعات المحلية، من حقي أن أكون أشهر موسيقار في العالم. فلم علي أن أدرس الطب وأنا لا أرغبه، لم علي أن أضيع بضع سنين من عمري في مواجهة مصير اقتحم حياتي عنوة، لم علي أن أستمر طيلة حياتي في ممارسة مهنة الطب وأنا لها مكره.

" أعلم يا أبي أن الكثيرين يتمنون أن يحلوا مكاني ويدرسوا الطب في الخارج، لكني أريد أن أكون موسيقار"

" أمي، إن أبي يتهمني بالغباء، ويقول أنني شخص تافه ، هل أصبحت تافها لأنني اخترت الموسيقى؟! "

صدر قرارهما، وسافرت إلى الخارج لدراسة الطب، وأقسمت لأحلامي أنني سأعود، فلن أستسلم لرغباتهما حتى لو كانا أغلى ما في الوجود. حزمت أمتعتي وابتسمت لهما ابتسامة مؤقتة، فلن أغيب عنهما طويلا، سأسكتهما قليلا ثم أعود بحجة محكمة التدبير، حينئذ سيضطران لتنفيذ رغباتي!

ما أن وصلت العاصمة حتى احتضنت حقيبتي بشدة مثل أم ثكلى تحتضن صورة ولدها، وبحلقت بشوارع البلاد بعينين وحيدتين، وحاولت البحث عن فندق مؤقت أمكث فيه ريثما أنتقل في صباح الغد إلى المدينة التي تتواجد فيها الجامعة التي سأدرس فيها ثم أبحث عن بيت صغير بالقرب من الجامعة أشارك فيه زملائي في الدراسة، فاعترض طريقي أحدهم وسألته عن أقرب فندق وبالصدفة تبين أنه عربي ونصحني باللجوء إلى البيت العربي للمكوث فيه بالمجان، تبين لي فيما بعد أن هذا البيت قد أقيم من قبل هيئة عربية على أساس مساعدة المغتربين العرب وتوفير لهم المأوى المناسب لهم ريثما يتمكنوا من تأمين أنفسهم وتدبير أمورهم بأيديهم.

لقد وجدت نفسي كما أنني في بيتي، لقد كان تصميم البيت العربي رائعا جدا حيث أنه يشبه تصميم بيت جدي القديم لكن بحجم أكبر، كما أنني وجدت بساطة الشعب العربي في وجوه المقيمين، ووجدت الطيبة وهي تقتحم وجوههم وتبين لي أنهم ما يزالون يحافظون على هذه الطيبة كونهم لم يصافحوا الآيادي السوداء بعد، فشعرت ببرودة غريبة لم تريحني قط رغم وجود المدفأة بقربي!

بزغت شمس ناعمة من السماء تكاد لا تبين، مختلفة تماما عن شمسنا المعتادة، فأشعرتني أنني طفل غبي أتوقع أن السماء مليئة بالشموس الكثيرة، رغم أنهم نجحوا في تقسيم شمسنا لشموس صغيرة منذ زمن ليس ببعيد! وانطلقت في الباص متجها نحو جامعتي، لقد كانت الجامعة بعيدة كثيرا عن العاصمة، لذلك استغليت وقتي في تأليف مقطوعة موسيقية مزعجة!

يبدو الضباب الذي يكتنف سماء المدينة كأرواح بشرية معلقة في عمق السماء، تنظر إلى أهل الأرض بترقب تام، وتلحظ أحوالهم على الدوام، إني ألحظ الآن كومة ضباب تسخر مني لتضيع وقتي سدى، فخشيت على عيني من اقتحام عالم الضباب لذلك غصت في سبات عميق ريثما أصل . ترجلت الحافلة بثقة عالية، ومشيت بالشوارع بخلاف ما كنت عليه في العاصمة، فلقد منحت حقيبتي

فرصة التأرجح على ظهري أثناء تنقلي في المدينة، وهناك استفسرت عن موقع الجامعة بالضبط، وبعد صعوبة شديدة تمكنت من الوصول، لقد كان منظر الجامعة مخيفا، شعرت أنني في مقبرة مهترئة، وشعرت أن الموتى قد استنجدوا بأرواح العلم ليصيروا طلابا نجيبين، ضحكت عليهم استهزاءً، وذهبت لإنهاء إجراءات التسجيل، لقد كانت الخطوات مملة للغاية وتعجبت من المسجل حينما ابتسم في وجهي بصدق وقال لي بلغته مبارك، فابتسمت له بتصنع ومضيت بطريقي لأخوض عالم الطب.

تصفحت أوراق التسجيل أثناء ذهابي لسكن الجامعة، وتبين لي أن علي دراسة سنة تمهيدية وبعد ذلك سأتقدم لامتحان قياس مستوى وبناء على نتيجته سيتم اتخاذ قرار في مصير دراستي، فإما إن أستمر في الطب، وإما علي الالتحاق بأي تخصص آخر أقل صعوبة من تخصص الطب. هزت الابتسامة فمي بشدة وعانقت الموسيقى بعشق، فلا داعي أن أبرز موهبتي في تلفيق الحجج لأعود لبلادي، فالحجة أصبحت جاهزة!

استمتعت جدا مع الطلبة المتواجدين معي في السكن، فلقد تمكنت من التأقلم معهم بسرعة على اختلاف أصولهم وطبيعة تفكيرهم، فالموسيقى لغة مرنة بإمكان الجميع أن يفهمها، لقد كنت أتخيل الكلمات المنبعثة من أفواههم مقطوعات موسيقية تترنم في أذني بعذوبة، وقد كان يوسف من أكثر الطلبة قربا مني، فهو طالب تركي، قد جاء إلى هنا منذ سنة مضت ليدرس الطب، لقد كان يعشق الموسيقى كثيرا، واذكر أننا كنا نمضي ليال عديدة في العزف والغناء، وقد كانت تجمعنا اللغة الإنجليزية للتواصل، وكم تمنى صديقي أن يتحدث معي العربية بدلا من الإنجليزية، فهو يعشق اللغة العربية حتى الثمالة، لذلك وعدته أن أعلمه أساسيات اللغة العربية طيلة مكوثي هنا، لا أنكر أنه تذمر كثيرا حينما علم أنني لا انوي الاستمرار في الدراسة هنا، فكم بذل من جهوده ليقنعني في العزوف عن رأيي، لكن كيف لي أن أستجيب له والموسيقى تراقبني عن كثب.

أمضيت السنة برفقة يوسف، وتمكنت من خلالها الإطلاع على شخصيته الرائعة، فما أروع الصفات النبيلة والأخلاق الحميدة التي كان يحملها في جوفه، وكم تمنيت أن أتعلم منه ومن أفكاره التي تكاد تصافح المثالية من روعتها، لكن كيف لي أن أبقى وأتعلم منه وموعد رحيلي قد اقترب، كيف لي أن أصارع أحلامي وأبقى هنا لأتعلم الطب والفكر معا، فلقد خضعت لامتحان المستوى، وقد تعمدت الرسوب، لذا فقد حان موعد العودة!

سريت منذ الصباح الباكر، وحرصت على بقاء أصدقائي نيام، وخصوصا يوسف، فليس لي طاقة على تحمل طعنات الوداع، كنت أحزم أمتعتي في حقيبتي المتسخة والدموع تتدفق من صنابير عيني، وكتبت رسالة لأصدقائي أنني قد عزمت على الرحيل، فلعلهم يدعوا لي بالخير، ولا بد أن صديقي يوسف سيتذمر كثيرا، وسيغضب لأنني لم أودعه لكنه في نهاية المطاف سيقدر أنني صاحب مشاعر مرهفة.

ارتميت بعد عناء المواصلات بين أحضان البيت العربي، وأودعت تعبي مع زفير نفسي، وحرصت أن أجلس وحيدا مستعيدا ذكرياتي مع أصدقائي في السكن وخصوصا صديقي يوسف، فعقلي ما يزال يرقد في فراشه، حاولت أن أشغل نفسي عن التفكير بأصدقائي بالتسامر مع الأشقاء العرب الذين يتبادلون أطراف الحديث في مضافة البيت العربي. لكني لم أنجح بتاتا لذلك قررت أن أخلد للنوم.

في تلك الأثناء استلم صديقي يوسف رسالة تخصني من بريد الجامعة، وقد انبثق الأمل من عيني صديقي وتمحور في عمق الرسالة، فقد تأمل أن تأتي الرسالة بخبر يجعلني أكف عما عزمت عليه، وأواصل دراستي في الجامعة، فعلق آماله بحروف رسالتي واستعد أن يخوض مشوارا طويلا ليصل إلي حيث البيت العربي في العاصمة ، فكم سيتحمل صديقي من مشاق الطريق من أجل آمل يحدوه من بعيد، كم سيستغرق من وقته كي يصلني بالرسالة، كم برهنت يا صديقي لعالم الصداقة أنك انسان رائع لا مثيل لك.

وصل يوسف العاصمة حينما طرق الليل أبواب سمائها، وطرق باب البيت العربي حينما أذنت السماء لليل بالدخول، استقبله مدير البيت بلطف، وأرسله حيث غرفتي التي سأرقد بها هذه الليلة، لم يكفيني وجهي لرسم ملامح المفاجأة عليه، إنما قد استعرت شيئا من ملامح وجه صديقي حينما رآني في المكان الذي توقعه، ولم يبذل جهدا إضافيا في البحث عني وسط شكوك جعلته يكاد يفقد الأمل في اللحاق بي، حاولنا أن نجمد الوقت كي نتمكن من نهش أكبر قدر من الحديث، لكن الوقت لا يتريث لفرح فرحان ولا لحزن حزين، الوقت سيمضي رغما عنا، لذلك فتحت الرسالة وكشفت عن خلاف ما كان يتمناه صديقي، فقد كانت الرسالة مجرد رسالة عادية من والدي يطمئناني فيها على نفسهما، فأصاب الإحباط صديقي وجرده من آماله في استئناف دراستي معه، لكننا قررنا أن نمضي ليلتنا الأخيرة معا، ونتبادل أروع أحلامنا في حديثنا الأخير، وبدأنا بالفعل في بث موجات ضحكاتنا من أبراج محبتنا، وكادت أن تغطي البيت العربي بأكمله لولا أن قطعها مدير البيت في دخوله علينا، لقد كان وجهه مليئا بالاستفسارات المحرجة، لكن طبيعة عمله والأوامر التي استعبدته دفعته للنطق بها. فوجه حديثه لي واللطف يغمره

- معذرة عن المقاطعة، لكني قد جئت إليكما من باب المسؤولية وتنفيذ عملي على أتم وجه.

ابتسمت بصعوبة، وأعربت له عن إعجابي بتفانيه في عمله، فأردف حديثه وهو ينظر لصديقي يوسف بعينين غريبتين.

- هل سيقضي ضيفك ليلته هنا، أم أنه سيغادر؟!

تملكني الذهول من حديث المدير، وحمدت الله في هذه اللحظات أن صديقي لا يفهم لغتنا، رغم أنني تمنيت أن يتقنها في يوم من الأيام، لكن استفسار المدير لا يبشر بخير، سألته باستنكار:

- وهل تتوقع أنه سيبرح المكان في مثل هذا الوقت المتأخر.

- لكنك لم تسجله في السجل، وكما تعلم أن هذه مسؤولية، وربما أنك لا ترضى لي الأذى.

فاجأت الراحة قلبي، وتنهدت تنهيدة مريحة، وتبسمت لصديقي الذي بدا كطفل جائع يصيح بأعلى صوته وسط أناس صم بكم. فقلت للمدير بتفاؤل:

- إن كان هذا كل ما في الأمر، فسأتوجه حالا للسجل وسأقيد اسم صديقي.

ابتسم المدير بمكر بعدما أحبط تفاؤلي بقوة، وقال بهدوء وهو يشير على صديقي:

- لكني أراه يتحدث باللغة الإنجليزية، أم أنه عربي ويتحدث بغير لغته

بدأت العصبية تغوي قلبي، وتثير جنوني، فلم أجد مبررا لأسئلته وقلت له بحدة:

- العربي الأصيل لن يغير لغته دون أي مبرر، فأرجو منك أن تقول ملخص حديثك وتريحنا!

- أرجو منك ألا تنفعل، فأنت ضيفنا ولا بأس بك، لكني أريد أن أتأكد من عروبة صديقك.

كدت أفهم الأمر وخشيت من فهمي، وقلت بمماطلة:

- صديقي تركي وليس عربي.

تبين لي لاحقا أن المدير قد علم أن يوسف تركي الأصل وليس عربيا، وقد علمت أن من أهم شروط المبيت في البيت العربي أن يكون الضيف عربيا، فتعجبت أن يصدر مثل هذا القرار من عربي مثلنا، فالعروبة تنادي بالكرم وحسن استقبال الضيف، فقلت للمدير محاولا إقناعه.

- هل أصبح المبيت هنا على أساس القومية، ألا تعلم أن أصولنا العربية تفرض علينا احترام الضيف مهما كان أصله والحرص على خدمته وتلبية رغباته طيلة مدة ضيافته. هل تريدون أن تشوهوا تاريخنا عند الأعاجم بهذه التصرفات الغريبة.

- لا تحدثني عن نظريات وقصص الزمن الماضي، فلكل زمن قوانينه الخاصة به.

- ما هذا الهراء الذي تفوهت به، هل أصبح تاريخنا المتوارث بفخر مجمعا لنظرياتك، ثم إن الزمن لا يبدل قوانينه، إنما لكل زمان أناس يغيرون ويبدلون في القوانين، فلم تحاولوا أن تطمسوا العادات الحميدة في زماننا هذا.

- اسمع يا أخي، ليس لدي وقت لمجادلتك، لذا أرجو ألا تتسبب في طردي من العمل.

حاولت أن أقنعه بآخر جملة بما إنهم يبحثون عن شيء ما يجمعنا، فقلت له:

- لماذا تنظر للموضوع من ناحية قومية، ابحث عن قواسم مشتركة بيننا ستجد أن صديقي على ديننا والدين يجمع ولا يفرق.

تململت كلماتي في أحشائه وجعلته يتخبط خبط عشواء كما لو نفثت فيه سما ملعونا ولا أدري صراحة ما السبب في ذلك فخرج وقد أصر على خروج صديقي، فقررت أن أخرج مع صديقي فلن تسمح لي أصولي أن أدع صديقي يترك المكان وحده مهما كان الأمر، لذلك حزمت أمتعتي وأشرت على صديقي الخروج، فسألني عن السبب، وقلت له: " أنني أود قضاء ليلتي الأخيرة معه في شوارع العاصمة بدلا من النوم حيث أنه لم يبق لبزوغ الفجر سوى أربع ساعات" فلن أخبره أبدا عن السبب الرئيسي لخروجنا، ولن أجعله ينقص من قيمة العروبة في نفسه، فربما لن يتعلم اللغة العربية أبدا لو أنني أخبرته السبب الرئيسي.

وصلنا المطار سيرا على الأقدام، وقد أكل حديثنا الممتع مسافة الطريق بشراهة ، حيث أن الفجر قد غطى السماء بأكملها، وبدأت عصافير الصبح تخرج من مبيتها الرباني، فهي لم تذق طعم العنصرية ولن تتقبله بأي شكل بالأشكال، تماما كهذا المطار فهو يجمع كل الأطياف والأجناس، فلا يفرق بين الدين ولا الجنس ولا اللون ولا الأصل، باختصار لا يعرف معنى العنصرية، ففي هذا المطار بالذات قد أدركت معنى الحياة.